﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمُۘ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ٢٠﴾ [الأنعام: 20]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

العلاقةُ بين شهادةِ اللهِ بنبوَّتِهِ ﷺ، وتكذيبِ أهلِ الكتابِ له رغمَ معرفتِهم به

لمّا أنكر كفّارُ مكّة نبوَّته ﷺ، وادَّعوا أنَّهم سألوا أهل الكتاب عنه، وقالوا: لا نعرفه؛ شهد الله تعالى على نبوَّته ﷺ: ﴿قُلِ ٱللَّهُۖ شَهِيدُۢ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۚ﴾، جاءَت هذه الآيةُ لتبيِّن كذِبَ أهل الكتاب في قولهم - لا نعرف محمَّدًا - وأثبتت أنَّهم يعرفونه نبيًّا ورسولًا، كما يعرفون أبناءهم.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَعۡرِفُونَ﴾: المعرفة: إدراكُ الشَّيء بتفكُّرٍ وتدبُّرٍ لأثرِه، فهي أخصُّ منَ العلم، ويضادُّها الإنكارُ[1]، قال أهلُ التَّحقيق: كمالُ الإنسان أن يعرفَ الحقَّ لذاته، لأجل العمل به، ورأسُ المعرفة اليقينيَّة معرفة الله تعالى"[2]. والتَّعريفُ قد يطلق، ولا يلزم منه المعرفة الحقيقيَّةُ، كما يقال: عرَّفتهُ، فلم يعرف، وفي قوله تعالى: ﴿فَلَعَرَّفۡتَهُم بِسِيمَٰهُمۡۚ وَلَتَعۡرِفَنَّهُمۡ فِي لَحۡنِ ٱلۡقَوۡلِۚ﴾ [محمّد: 30]، فكان المعنى هنا: عَرَّفْناكَهُمْ تعريفًا تعرفهم به، ففيه إشارةٌ إلى قوَّة ذلك التَّعريف الَّذي لا يقع معه اشتباهٌ"[3]. ومعنى: ﴿يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمُۘ﴾، أي: "يعرفون رسول الله ﷺ بحِلْيته ونَعْتِه الثّابت في الكتابين ﴿كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمُۘ﴾، بحُلاهُمْ ونُعوتِهم، وهذا استشهادٌ لأهل مكَّة، بمعرفة أهل الكتابِ به، وبصحَّة نبوَّته"[4].

2) ﴿خَسِرُوٓاْ﴾: الخُسرُ: النُّقصان، والخسران كذلك، والفعل:

(1) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن سيده، المحكم: (عرف).
(2) الخازن، لباب التّأويل: 4/87.
(3) الخازن، لباب التّأويل: 4/87.
(4) النّسفيّ، مدارك التّنزيل وحقائق التّأويل: 1/496.

خَسِرَ يَخسَرُ خُسرانًا، والخاسرُ: الَّذي وُضع في تجارته، ومصدرهُ: الخسارةُ والخُسر، ويُستعمل ذلك في المقتنيات الخارجةِ كالمال والجاه في الدُّنيا، وهو الأكثرُ، وفي المقتنيات النَّفسيَّة كالصِّحَّة، والسَّلامة، والعقلِ، والإيمان، والثَّواب، وهو الَّذي جعله اللَّهُ تعالى الخسرانَ المبين، وقال: ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ١٥﴾ [الزّمر: 15][1].

3) ﴿أَنفُسَهُمۡ﴾: النَّفس: الرّوح، يُقال: خَرَجَت نَفسُ فلان، أي: روحه، وتأتي بمعنى العين، فيُقال: أصابَت فلانًا نَفسٌ، أي: عينٌ، ونَفسُ الشَّيء: عينُه، وأصلُ الكلمة مِنَ التَّنفيس، وهو: الخروجُ منَ الجَوف. ويُطلَق النَّفس على الدَّم؛ لأنَّه أساسُ الحياة، أو لأنَّ الرُّوح تخرج بخروجهِ، يُقال: سالَت نَفسه، أي: دَمه. ومن معانيها أيضًا: الجسد، والحسد، والذَّات، والحقيقةُ، والعزَّة، والهمَّة[2].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

بيانُ كفرانِ أهلِ الكتابِ بمحمَّدٍ ﷺ، رغـم أنَّـهـم يعرفونه كأبنائِهم

يُخبِرُ تعالى أنَّ الَّذين أوتوا التَّوراة والإنجيل منَ اليهود والنَّصارى يعرفون محمَّدًا ﷺ، كما يعرف الواحد منهم ابنَه، والَّذين خسروا أنفسهم كلَّ الخسارة هم الَّذين كفروا بمحمَّد ﷺ، وفاتهم الإيمانُ بهِ، وبرسالتهِ[3]، فقد بشَّر الرُّسل كُلُّهُمْ ببعثةِ محمَّدٍ ونعته، وصفته ومكان هجرتهِ، وصفة أمَّتهِ[4].

(1) الخليل، العين، والرّاغب، المفردات: (خسر).

(2) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (نفس).

(3) الزّحيلّي، التّفسير المنير: 3/180. ويؤكّد معرفةَ أهلِ الكتاب للنّبيّ الأكرم ﷺ ما ذكرته بعض الرّوايات؛ فمن ذلك ما رويَ أنَّ النَّبيّ ﷺ لمّا قَدِمَ المدينة، وأسلم عبد الله بن سلام، قال له عمر بن الخطّاب ﷺ: إنَّ الله ﷻ أنزلَ على نبيِّه محمَّد ﷺ بمكّة ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ﴾ [البقرة: 146]، فكيف هذه المعرفة؟ فقال عبد الله بن سلام: يا عمر، لقد عرفتُه حين رأيته، كما أعرف ابني، ولأنا أشدُّ معرفةً بمحمَّد ﷺ، منّي بابني، فقال عمر: وكيف ذاك؟ قال: أشهد أنَّه رسول الله حقًّا، ولا أدري ما يصنع النِّساء، فقال عمر: وفَّقك الله يا ابن سلام. ينظر: الواحديّ، الوسيط: 1/231، والهرريّ، حدائق الرَّوح والرّيحان: 8/245.

(4) أسعد حومد، أيسر التّفاسير: 3/180.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ التَّعريفِ بالاسمِ الموصول في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾:

علماءُ اليهودِ هم أعرفُ النَّاسِ بنبوَّةِ محمَّدٍ ﷺ

دلَّ اسمُ الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾ في الآية الكريمة على علماءِ اليهودِ الَّذين كانوا في زمنِ النَّبيِّ محمَّدٍ ﷺ، ونلحظ أنَّهم قد عُرِّفوا بالموصوليَّة؛ وهذا لتقويَةِ الغرض الَّذي من أجله سيق الكلام؛ وهو بيانُ معرفتِهم برسول الله ﷺ وصدقِه، واليهود ليسوا في العلم سواءً، فلا يمكن أن يُستدلَّ بعلم عامَّتهم في أمرٍ عظيم كهذا، فأفاد تعريفُهم بالموصوليَّة أنَّهم الَّذين درسوا الكتاب - توراةً أو إنجيلًا - وعرفوا ما فيه من صفاتِ النَّبيِّ ﷺ؛ وهم الأحبارُ، ولمّا كانوا كذلك، فهذا يعني: أنَّهم قد بلغوا منَ العلم أقصاه، واستحقّوا بهذا أن يُستدلَّ بعلمِهم، وأن تذكر شهادتُهم.

وأكَّد ذلك الرّازيُّ بقوله: "وإن كان عامًّا بحسب اللَّفظ لكنَّه مختصٌّ بالعلماء منهم، والدَّليل عليه أنَّه تعالى وصفهم بأنَّهم يعرفونهُ كما يعرفون أبناءَهم، والجمع العظيمُ الَّذي علموا شيئًا استحالَ عليهم الاتِّفاق على كتمانهِ في العادة"[1].

سرُّ التَّعبيرِ بالفعل ﴿ءَاتَيۡنَٰهُمُ﴾ دون (أعطيناهم):

النُّبوَّةُ مَحْضُ فضلٍ منَ الله، لمَن اصطفاهُ

لأنَّ الإيتاءَ لا يكون إلّا في الشَّيءِ العظيم، مثل: القرآنِ والتَّوراةِ والإنجيلِ والمُلك والحكم والنُّبوَّة، قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ سَبۡعٗا مِّنَ ٱلۡمَثَانِي وَٱلۡقُرۡءَانَ ٱلۡعَظِيمَ ٨٧﴾ [الحجر: 87]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ [البقرة: 121]، وقال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَۚ﴾ [الأنعام: 89]، وقال تعالى: ﴿تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ﴾ [آل عمران: 26]، كلُّ هذه المعاني تكونُ مع الإيتاءِ الَّذي ليس للعبد فيه دخلٌ، ولا اجتهادٌ، إنَّما هو مَحضُ فضلِ

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 4/110.

للّه تعالى على مَن يختارهُ لرسالته، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا﴾ [الحجّ: 75]، وقال لموسى عليه السلام: ﴿إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي﴾ [الأعراف: 144]. أمّا الإعطاءُ؛ فهو فِعلٌ له مقابلٌ، أعطاني فأعطيتُه، ويُسمَّى بفعل المطاوعةِ، ويكون في الشَّيء القليلِ، قال تعالى: ﴿وَأَعۡطَىٰ قَلِيلٗا وَأَكۡدَىٰٓ ٣٤﴾ [النّجم: 34]، وقد يرد العطاءُ مفيدًا للكثرة إذا كان مضافًا للرَّبِّ، كما في قوله: ﴿وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحۡظُورٗا ٢٠﴾ [الإسراء: 20]، وقد يَرد العطاءُ كرهًا كما في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ٢٩﴾ [التّوبة: 29]، لذلك كلِّه آثرَ القرآنُ التَّعبيرَ بفعل الإيتاء؛ لأنَّ السّياق هنا في المعاني العظيمةِ.

سرُّ مجيءِ الفعل مسنَدًا إلى نونِ العظمةِ في قوله: ﴿ءَاتَيۡنَٰهُمُ﴾:

إيتاءُ الكتاب تكريمٌ من الله تعالى لأهله

آثرَ القرآنُ التَّعبيرَ بالفعل ﴿ءَاتَيۡنَٰهُمُ﴾ دون (أوتوا)؛ حيثُ جاء مسندًا إلى نون العظمةِ الَّتي تدلُّ على الله تعالى، وفيه إشارةٌ إلى تكريم الله تعالى لأهل الكتاب؛ لأنَّ هذه النّونَ في إسنادها إلى بعض الأفعالِ، تفيدُ الإكرامَ والاصطفاء، ولم يدرج السّياق ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ يَشۡتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ﴾، قال تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ يَشۡتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ﴾ [النّساء: 44]، وقال تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡجِبۡتِ وَٱلطَّٰغُوتِ﴾ [النّساء: 51] إلى غير ذلك منَ الآيات الَّتي ذكر فيها الفعل ﴿أُوتُواْ﴾ ليحمل ذمًّا لهم على مخالفتِهم وضلالاتهم، وعلى هذا كان إيثارُ الفعل ﴿ءَاتَيۡنَٰهُمُ﴾ هو الأوفقُ بهذا السّياق.

دلالةُ تخصيصِ أهلِ الكتابِ بالمعرفةِ دون غيرِهم منَ الأممِ:

معرفةُ أهلِ الكتابِ بالنَّبيِّ ﷺ، معلومٌ بالصِّفات وقرائن المعجزات

خصَّ أهل الكتاب؛ لأنَّهم أصحابُ كتابٍ سماويٍّ، فيه البشارات بالنَّبيِّ ﷺ، بخلاف غيرهم منَ الأمم، فليسوا أهل كتاب؛ فلا علمَ لهم بذلك النَّبيِّ ﷺ، "قال المهايمي: لأنَّه ﷺ ذُكر في الكتاب نعتهُ، وهو وإن لم يُفد تعيُّنَه باللَّون والشَّكل والزَّمان والمكان، تعيَّن بقرائنِ

المعجزات. فبقاءُ الاحتمال البعيدِ فيه، كبقائهِ في الولد، بأنَّه يمكن أن يكونَ غير ما ولدتهُ امرأته، أو يكون من الفجورِ، مع دلالةِ القرائن على براءتِها من التَّزويرِ والفجورِ، فهو كما يعرفون أبناءهم في ارتفاعِ الاحتمال البعيدِ بالقرائنِ على براءتِها"[1]. ثمَّ لأنَّهم كانوا يسكنون في الجزيرة العربيَّة، وبالأخصِّ اليهود في المدينة؛ فهم على قربٍ زمانيٍّ ومكانيٍّ بالبيئة للرِّسالة المحمَّديَّة.

دلالةُ دخولِ (أل) على لفظ ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾ في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾:

لفظُ (الكتاب) يرادُ به التَّوراةُ أو الإنجيل أو هما معًا

استُعمل لفظ ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾ مُعرَّفًا للدَّلالة على التَّوراة والإنجيلِ، وعند استقراء الاستعمال القرآنيِّ نجد أنَّ القرآن الكريمَ أرادَ بلفظ (الكتاب) في أغلبِ الأحيان (التَّوراة) وليس الإنجيلَ، إذ إنَّ هذا اللَّفظَ ورد في كثيرٍ منَ المواضع في سياقِ الحديث عنِ اليهود، فضلًا عنِ التَّركيب، قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ﴾ [البقرة: 87]، الَّذي يُشير بوضوحٍ إلى أنَّ المرادَ هو التَّوراة فقط، إذِ استُعمل هذا التَّركيب في عشرة مواضعَ مِنَ التَّنزيل، ويلاحظ أنَّ (الكتاب) إذا كان بمعنى: التَّوراة يكون مقترنًا بالفعل (آتى)، أمّا إذا أريدَ بلفظ (الكتاب) التَّوراةُ والإنجيل، فإنَّ هناك قرائنَ تُعين على ذلك، منها السّياقُ، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلۡكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيۡنِ﴾ [الأنعام: 156]، إذ دَلَّت لفظة ﴿طَآئِفَتَيۡنِ﴾ على اليهود والنَّصارى، وفي موضع واحدٍ فقط أريد بلفظ (الكتاب) معنى الإنجيلِ، وذلك في قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيّٗا ٣٠﴾ [مريم: 30]، إذ ذهب الزَّمخشريُّ إلى أنَّ المرادَ بالكتاب في هذا الموضع (الإنجيل)؛ لأنَّ اللَّفظ ورد في سياقِ الحديث عن قصَّة النَّبيِّ عيسى (عليه السلام)[2].

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 4/110.

(2) داود، دلالة لفظ (الكتاب) في الاستعمال القرآنّي، ص: 104.

دلالةُ إيحاءِ لفظ ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾ في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾:

تخلّي أهلِ الكتاب عن مضمونِهِ، اقتضى أسلوبَ المدحِ الَّذي يشبه الذَّمَّ

هذا الاختيارُ فيه إشارةٌ إلى التَّقريع والتَّأنيب لليهود والنَّصارى؛ لأنَّهم خرجوا عنِ القيمة الإيمانيَّة الَّتي ينبغي أن تكون عندهم من أثر هذا الكتابِ، وكان عليهم أن يبادروا إلى الإيمان بالنَّبيِّ ﷺ؛ لأنَّ وصفه مكتوبٌ عندهم في كتابهم، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ﴾ [الأعراف: 157]، فهو مدحٌ يشبه الذَّمَّ لهم.

سرُّ اختيارِ التَّعبيرِ القرآنيِّ لكلمة ﴿يَعۡرِفُونَهُۥ﴾ دون (يَعلَمونَه):

الحجَّةُ قائمةٌ على أهلِ الكتابِ في صحَّة بعثةِ النَّبيِّ ﷺ

اختارَ التَّعبيرُ القرآنيُّ ﴿يَعۡرِفُونَهُۥ﴾ دون (يعلمونه)؛ للدَّلالة على أنَّ المقصودَ بالكلام النَّبيُّ ﷺ؛ لأنَّ المعرفة تتعلَّق غالبًا بالذَّوات والأمور الحسّيَّة[1]، قال تعالى: ﴿تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِهِمۡ نَضۡرَةَ ٱلنَّعِيمِ ٢٤﴾ [المطفّفين: 24]؛ فالمعرفةُ تختلفُ عنِ العلم؛ فتقول: عرفتُ فلانًا، ولا تقولُ: عرفتُ علمَ فلانٍ؛ لأنَّ العلمَ إدراكُ الشَّيء على حقيقته، ونقيضه الجهلُ؛ أمّا المعرفةُ؛ فهي إدراكٌ لآثار الشَّيء، وضدُّها الإنكارُ. وعلى هذا أُسندت المعرفة في جانب المولى سبحانه؛ فتقول: عرفت اللّه؛ لأنَّك أدركتَ آثارَ خلقه، ولا تقول: علمتُ اللّه. وعلى هذا استُخدمتِ المعرفة في الدَّلالةِ على صفاتِ النَّبيِّ ﷺ، وعلاماتِهِ المذكورة في كتبهم، وهي واضحةٌ جليَّة كأنَّها في حكم المحسوسِ، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ علاماتِ النُّبوَّة ظاهرةٌ في وجهِهِ ﷺ وفي سيرتِهِ، فلا تحتاجُ إلى إقامة الدَّليل الَّذي هو العلم؛ إنَّما لوضوحها عُبِّر عنها بالمعرفة.

تعدُّد أقوالِ المفسِّرين في عودِ الضَّميرِ في قوله تعالى: ﴿يَعۡرِفُونَهُۥ﴾:

سرُّ التَّعبيرِ عنه بالضَّميرِ دونَ الاسمِ الظَّاهرِ

يرى أكثرُ المفسِّرين أنَّ الضَّمير في قوله: ﴿يَعۡرِفُونَهُۥ﴾ يعودُ على النَّبيِّ ﷺ، ويُؤيِّد ذلك سبب نزول الآيةِ. ويرى بعضُهم أنَّه يعود على

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/40.

القرآن لتقدُّمه في قوله: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ﴾ [الأنعام: 19]، أو على التَّوحيد لدلالةِ قوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [الأنعام: 19]، والأَوْلى عودةُ الضَّمير على جميع ما ذُكِرَ؛ لأنَّ معرفتَهم بما في كتابهم يتناول كلَّ ذلك[1]. والمعنى: أنَّهم يعرفون رسولَ الله ﷺ معرفةً جليَّة يميِّزون بينه وبين غيرِهِ بالوصف المعيَّن المشخَّص؛ وذلك لصفتهِ الَّتي جاءَت في كتابهم[2]، وقد جاء إضمارُ ذكره ﷺ، وإن لم يسبق له ذكرٌ؛ لأنَّ الكلامَ يدلُّ عليه، ولا يلتبسُ على السّامع، كما أنَّ في إضماره عليه الصَّلاة والسَّلام تفخيمًا له، وإشعارًا بشهرته، وكونه معلومًا بغير إعلامٍ[3].

دلالةُ التَّشبيهِ في قولهِ تعالى: ﴿كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ﴾:

القيمةُ البلاغيَّةُ للتَّشبيه في الآية الكريمة

لمّا كان المقامُ هنا مقامَ استدلالٍ ومجابهة منكر، فلا يكفي فيه مجرَّدُ سَوقٍ لما لدى أهل الكتاب من شهادة، بل لا بدَّ من أسلوبٍ يزيد تلك الشَّهادَةَ وذلك المعنى قوَّةً ووضوحًا وبيانًا؛ لتقوم الحجَّة عليهم، فأُتي بكافِ التَّشبيهِ؛ لتزيد المعنى وضوحًا وبيانًا وقوَّة؛ فشبَّهت معرفة علماء اليهود للنَّبيِّ ﷺ، أو للحقِّ الَّذي أتى به ﷺ بمعرفتهم لأبنائهم، وأداة التَّشبيهِ الكاف، ووجه الشَّبهِ "التَّحقُّق والجزم"[4]. وتظهر القيمة البلاغيَّةُ لهذا التَّشبيهِ، في بيان مقدار معرفة أهل الكتاب به ﷺ، وأنَّها معرفةٌ بلَغت درجةً لا ترتقيها ذرَّة شكٍّ، ومَن ينكر ولده حينئذٍ إلّا جحدًا وعنادًا وغيرهما، وهو في قرارة نفسهِ يعلمُ أنَّه ابنه بلا شكٍّ، ففي التَّشبيهِ منَ الإيضاح والتَّأكيدِ ما فيه، فكيف يمكن للشَّكِّ أن يتسرَّب إلى النُّفوس بعد ذلِكَ؟ وممّا يُظهِر

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/276، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/461 - 162، والقنّوجيّ، فتح البيان: 4/118، ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/171، وطنطاويّ، الوسيط: 5/54.

(2) الفرّاء، معاني القرآن: 1/329، والماورديّ، النّكت والعيون: 2/101، والواحديّ، الوسيط: 3/396.

(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/204.

(4) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 4/101، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/171.

القيمةَ - أيضًا- أنَّ هذا التَّشبيه لا يخفى على ذي لبٍّ؛ فهم يعرفون أنَّ محمَّدًا ﷺ نبيٌّ مبعوثٌ من ربِّه، وأنَّ الَّذي معه هو الحقُّ من عند اللّه تعالى.

سرُّ اختيارِ لفظِ الأبناء دون غيرِهم في قوله تعالى: ﴿كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمُۡ﴾:

المعرفةُ وجهُ الشَّبهِ الجامعُ في كلٍّ منهما

سببُ اختيارِ لفظ الأبناء دون غيرِهم في الآية؛ لأنَّه لفظ خاصٌّ بالذُّكور، ولأنَّهم أكثرُ مباشرة ومعاشرة للآباء، وألصق وأعلقُ بقلوب الآباء، فهم الأشهرُ والأعرفُ، وظاهر هذا التَّشبيه أنَّ المعرفةَ أريد بها معرفةُ الوجه والصّورة، وتشبيهها بمعرفة الأبناء يقوّي ذلك، ويقوّي أنَّ الضَّميرَ عائدٌ على الرَّسول ﷺ، حتَّى تكون المعرفتان تتعلَّقان بالمحسوسِ المشاهدِ، وهو آكدُ في التَّشبيه من أن يكون التَّشبيهُ وقع بينَ معرفة متعلَّقها المعنى، ومعرفة متعلَّقها المحسوس[1]. ثمّ إنَّ لفظ الأبناء أعمُّ؛ فالأولادُ لا يكونون إلّا لمَن كانوا من صلبِه، أمّا الأبناءُ؛ فهو أعمُّ؛ فيشمل ما كان منَ الصُّلب، ومن غيرِه كالرَّضاع، ويحتمل أن يُرادَ بالأبناء الأولاد، فيكون ذلك من بابِ التَّغليبِ؛ لذا اختيروا للتَّشبيه بمعرفة آبائِهم بهم، وهذا قوَّى التَّشبيهَ والخبر.

دلالةُ عدمِ عطفِ جملة: ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾ على ما قبلَها:

إيضاحُ مدى تصلُّبِ المشركين، وإصرارِهم على الشِّرك

لم تُعطف جملةُ: ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾ على ما قبلها؛ لأنَّها كلام مُستأنَفٌ، ولاتَعَلُّقَ له بالأوَّل، وأُريدَ به كفّارُ مكَّة الَّذين لم يؤمنواْ بمحمَّدٍ ﷺ، والغرضُ منه زيادةُ إيضاحٍ لمدى تصلُّب المشركين وإصرارهِم على الشِّرك. وأيضًا على رأيِ مَن يقول: إنَّها صفة (الَّذين) الأولى؛ فلشدَّة اللُّصوق بين الصِّفة والموصوف لم تُعطف، ويكون المقصودُ من ذلك وعيدَ أهل الكتاب الَّذين يعرفون محمَّدًا ﷺ، ويجحدون نبوَّتَه.

(1) أبو حيّان: البحر المحيط: 2/33.

دلالةُ اختيارِ لفظِ (الخُسْران) في قوله تعالى: ﴿خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾:

الإعـــراضُ عن دينِ الله أعظمُ خُسرانٍ في حياةِ الإنسان

اختار القرآنُ هذا اللَّفظ؛ لأنَّ معناه أنَّهم أضاعوا أنفسَهم، كما يضيع التّاجر رأسَ ماله، فهو مستعارٌ لإضاعة ما شأنه أن يكونَ سببَ نفعٍ، أي: إنَّهم عدموا فائدة الانتفاع بما ينتفع به النّاسُ من أنفسهم، وهو العقلُ والتَّفكير، فإنَّه حركةُ النَّفس في المعقولات لمعرفةِ حقائق الأمور[1]، فعبَّر القرآن الكريم بهذا التَّعبيرِ البليغ؛ ليكون أكثرَ إقناعًا للمُتلقّي الَّذي يدرك هذا المعنى المرتبطَ بواقعه، والقريبَ من فهمه وإدراكه، فكأنَّه ﷻ جعلَ نفوسهم لهم بمنزلة العروضِ المملوكة، إذ كانوا يوصفونَ بأنَّهم يملكونَ نفوسَهم، كما يوصفون بأنَّهم يملكون أموالهم، وذكر خسرانَهم لها؛ لأنَّهم عرَّضوها للخسارة، وأوجبوا لها عذابَ النّار، فصارت في حكمِ العروض المتلَفات، وتجاوزوا حدَّ الخسران في الآثام إلى حدِّ الخسران في الأعيان.

معنى التَّعبيرِ بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾ في الآية الكريمةِ:

أزمةُ أهلِ الكتابِ خسارةُ الأنفس، وهي خسارةٌ في رأسِ المالِ

عبَّرَ بخسارةِ النَّفس؛ لأنَّ المرادَ إفْسادُ فطرتِها، وعدمُ اهتدائِها بما منحها الله تعالى منَ الهدايات الَّتي توصلُهم إلى الإيمان بالنَّبيِّ ﷺ، حيث ذُكرت صفاتُه في التَّوراةِ والإنجيلِ؛ فلا اهتَدَوا إليها بما عندهم منَ النَّقل المقدَّس، ولا بالعقل الَّذي يؤكِّد صدقَ نبوَّتِه ﷺ، فاجتمعَ له دليلان على نبوَّته: دليلٌ نقليٌّ، ودليلٌ عقليٌّ، ومع ذلك آثروا مكاسبَ الدُّنيا ومتاعَها، كما صوَّر القرآنُ ذلك عنهم بقوله: ﴿ٱشۡتَرَوۡاْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلٗا﴾ [التّوبة: 9]، مقابل إنكارِ النُّبوَّة؛ فناسَبَ هنا التَّعبيرُ بالخسارة؛ لأنَّ القضيَّة مع أهل الكتاب بيعٌ وشراءٌ، وذلك مجاله الخسارة في رأس المال، والَّذين أنكروا نبوَّته ﷺ، خسِروا أنفسَهم، وهو رأسُ مالِهم. وأيضًا لأنَّهم خسروا الجنَّة في مقابلِ ربحٍ قليل في الدُّنيا، وهذا في الميزان التِّجاريِّ الحقيقيِّ عينُ الخسارة.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/154.

دلالةُ التَّعبيرِ بالجملة الاسميَّةِ في قوله تعالى: ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾:

عبَّر بالجملة الاسميَّة؛ لأنَّها وقعت خبرًا لما قبلها، ولأنَّها تفيد ثبوتَ الخسرانِ ودوامَه الحاصل لهم بسبب الكفرِ وعدمِ الإيمان، "وقد علموا أنَّه الصّادِقُ الأَمينُ، وإنْ لجَّ قادتُهم في الخصومةِ حتَّى فَجَروا فيها، وشهدتِ الكتبُ السّابقة والَّذين يعتنقون ما فيها، فلماذا يكذِّبون ويشركون؟ فماذا بعدَ الحقِّ إلّا الضَّلال؟ وأيُّ خسارةٍ نفسيَّةٍ أكثر من الفُجر في الخصومة، واللَّجاجةِ في البهتان ؟ حتَّى أصبحوا لا يُتَصوَّر الإيمان منهم"[1].

من لم يُؤمن مع البراهين، لا يستحقُّ أن يُعدَّ مع المؤمنين

سرُّ اقترانِ الضَّمير (هم) بالفاءِ في قوله: ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾:

اقترنَ بالفاءِ لِتضمُّن المبتدأ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ معنى الشَّرط، وقيل: "و(الفاء) رابطة لما في الموصول من رائحةِ الشَّرط، و(هم) مبتدأ ثانٍ وجملة ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ خبر (هم)[2]، وفائدةُ ضمير الفصل: التَّأكيد على عدم إيمانهم، فَهُمْ لا يُؤْمِنونَ به؛ لأنَّهم جمعوا بين أمرين متناقضَين، فكذبوا على اللّه بما لا حجَّة عليه، وكذَّبوا بما ثبتَ بالحجَّة والبرهان الصَّحيح[3].

فائدةُ ضميرِ الفصلِ في الآيةِ الكريمة

سرُّ العدولِ عنِ الوصف بالكفرِ إلى نفي الإيمانِ في قوله: ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾:

عدلَ القرآنُ الكريمُ عن وصفِهم بالكفرِ أو الشِّرك، إلى نفي الإيمان؛ لإظهارِ جمالِ القرآن في عرض الدَّعوةِ، حيثُ يختارُ الألفاظَ الَّتي تفتحُ البابَ للدُّخول في الإسلام والإقبال عليه؛ فمع ما حدثَ من أهل الكتاب في إنكار نبوَّتِه ﷺ، وحَضِّهِمْ كُفّارَ قريشٍ على عدمِ الإيمان به، لم يَصِفْهُمُ القرآنُ بالكفرِ أو الشِّركِ، بل وصفَهم بعدمِ الإيمان، وهذا يعني: أنَّ أمرَ الإيمان منهم واردٌ، وفيه حثُّهم على الإيمان بالنَّبيِّ الأكرم ﷺ.

أدبُ القرآنِ في اختيارِ العباراتِ نموذجٌ راقٍ في الخطابِ

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/154.
(2) محيي الدّين درويش، إعراب القرآن وبيانه: 3/83.
(3) إبراهيم الأبياريّ، الموسوعة القرآنيّة: 9/422.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

السِّفر، والكتاب، والصُّحف:

الفروقُ المأنوسةُ للكتابِ وما في حقلِهِ، تحكمُها ضوابطُ الاستعمال لكلٍّ منها

قال الرّاغبُ: السِّفْرُ: الكتابُ الكبيرُ الَّذي يُسْفِرُ عنِ الحقائق؛ أي: يكشفُ عنها، وفي القاموس: السِّفْر: الكتابُ الكبير، أو جزءٌ من أجزاء التَّوراة[1]، والكتاب: هو السِّفرُ، وجمعُه أسفارٌ، قال الزَّجاجُ: وإنَّما قيل للكتاب: سِفْرٌ، بكسر السّين، وللكاتب: سافرٌ؛ لأنَّ معناه أنَّه يبيِّنُ الشَّيءَ، ويوضِّحُه[2] قوله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢاۚ﴾ [الجمعة: 5]، فالمرادُ تشبيهُ حال اليهودِ في جهلها بما معها مِنَ التَّوراة، بحال الحمارِ في جهله بما يحملُ من أسفارِ الحكمة[3]. وَقَوْلُهُ: ﴿فِي صُحُفٖ مُّكَرَّمَةٖ ١٣﴾ [عبس: 13].

يعني: اللَّوحَ المحفوظ، وقيل: كتب الأنبياء (عليهم السلام)، دليلهُ قولُه سبحانه: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلۡأُولَىٰ ١٨ صُحُفِ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ١٩﴾ [الأعلى: 18 - 19][4]، ومن الصُّحف: المصحفُ. وقد فرَّق العسكريُّ بين الكتاب والمصحف؛ بأنَّ الكتابَ يكون ورقةً واحدة، ويكون جملةَ أوراق، والمصحفُ لا يكون إلّا جماعةَ أوراق صُحِفَتْ، أي: جُمِعَ بعضُها إلى بعضٍ، وأكثرُ ما يُقال: المصحفُ لمصحف القرآن، والكتابُ أيضًا يكون مصدرًا بمعنى: الكتابة، تقول: كتبتُه كتابًا، وعلَّمتُه الكتاب[5].

(المعرفة) و(العلم):

المعرفةُ تتعلَّقُ بذاتِ الشَّيءِ، والعلمُ يتعلَّقُ بأحوالِهِ

فعلُ المعرفةِ يقعُ على مفعولٍ واحدٍ، تقول: عرفتُ زيدًا، كقولِهِ تعالى: ﴿يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ﴾، وفعلُ العلم يقتضي مفعولين، كقوله تعالى: ﴿فَإِنۡ عَلِمۡتُمُوهُنَّ مُؤۡمِنَٰتٖ﴾ [الممتحنة: 10]، وإن

(1) الرّاغب، المفردات، والفيروزابادي، القاموس المحيط: (سفر).
(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: (سفر).
(3) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 1/57.
(4) الثّعلبيّ، الكشف والبيان: 10/131.
(5) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 447.

وقعَ على مفعولٍ واحدٍ كان بمعنى المعرفةِ، كقولهِ: ﴿وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ [الأنفال: 60]، والمعرفةُ تتعلَّق بذات الشَّيء، والعلم يتعلَّق بأحواله، فتقولُ: عرفتُ أباك، وعلمْتُهُ صالحًا عالمًا؛ ولذلك جاء الأمر في القرآن بالعلم دون المعرفة، كقوله تعالى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمّد: 19]. فالمعرفة: حضورُ صورةِ الشَّيء، ومثاله العلميُّ في النَّفس، والعلم: حضورُ أحوالهِ وصفاتهِ ونسبتُها إليه، فالمعرفةُ: تشبه التَّصوُّر، والعلم: يشبهُ التَّصديقَ[1].

(النَّفس) و(الرُّوح):

الفرقُ بين النَّفسِ والرُّوحِ، فرقٌ بالصِّفات لا بالذَّات

النَّفسُ تُطلَق على أمورٍ، وكذلك الرّوح، فيتَّحد مدلولهُما تارةً، ويختلف تارةً، فالنَّفس تُطلق على الرّوح، ولكن غالبًا ما تُسمَّى نفسًا؛ إذا كانت مُتَّصلة بالبدن، وأمّا إذا أُخذِت مجرَّدة؛ فتسميةُ الرّوح أغلب عليها، والنَّفس: العينُ، يُقال: أصابت فلانًا نفسٌ، أي: عين، والنَّفس: الذّات، كقوله تعالى: ﴿فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ [النّور: 61]، وقوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ [النّساء: 29]، ونحو ذلك، والفرقُ بين النَّفس والرّوح فرقٌ بالصِّفات لا بالذّات، والرّوح لا تُطلَق على البدن لا بانفراده، ولا مع النَّفس، وتُطلَق الرّوح على القرآنِ وعلى جبرائيل، كما في قوله تعالى: ﴿أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشّورى: 52]، وقوله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾﴾ [الشّعراء: 193]، وتُطلَق الرّوح على الهواء المتردِّد في بدنِ الإنسان أيضًا[2].

(الإسلام) و(الإيمان):

الإسلامُ: هو الانقيادُ لطاعة الله تعالى، وقبولُ ما جاء به النَّبيُّ ﷺ، وبه يُحقَنُ الدَّمُ، فإن كان مع الإظهار اعتقادٌ وتصديقٌ

الإسلامُ: هو الانقيادُ لمرادِ الله تعالى، والإيمانُ تصديقٌ بهِ وبما جاءَ منه

(1) ابن القيّم، مدارج السّالكين: 3/314، والسّمين، الدّرّ المصون: 5/630، وابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 9/556.

(2) ابن جبرين، شرح العقيدة الطّحاويّة: 59/7، والتّميميّ، توضيح الأحكام من بلوغ المرام: 3/155.

بالقلب، فذلك الإيمان، وأمّا مَن أظهرَ قبولَ الشَّريعة، واستسلم لدفعِ المكروه، فهو مُسلمٌ في الظّاهر، والإيمانُ لابدَّ أن يكون صاحبُه صدّيقًا؛ لأنَّ قولك: آمنتُ بكذا، معناه: صدَّقتُ به"[1].

والإسلامُ هو تسليم النَّفسِ لله خالصةً سالمة، لا يجعل لغيره فيها حقًّا، والإيمان هو أن يصدقَ الله بالرُّبوبيَّة في نفسه، وفي كلِّ شيءٍ. وهما في الحقيقة واحد، وفي العبارة مختلفان؛ لأنَّه إذا جعل نفسَه وكلَّ شيء سالِمًا لله تعالى؛ أقرَّ بالرُّبوبيَّة له في نفسه وفي كلِّ شيءٍ، وإذا صدَّقه، وأقرَّ له بالرُّبوبيَّة في نفسِه، وفي كلِّ شيءٍ جعلها للهِ، وجعل كلَّ شيء له[2].

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 574.
(2) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنة: 6/139.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد العاشر، سورة المائدة من الآية 107 إلى سورة الأنعام الآية 58
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة المائدة من الآية 107 إلى سورة الأنعام الآية 58 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 10 ، 804 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-798-62-0
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 10 : سورة المائدة من الآية 107 إلى سورة الأنعام الآية 58.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-798-62-0
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-7560922 بتاريخ 2023/12/18م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»